لا شيء يحدث

مي صايغ

لعلّكِ كنتِ تصطادين النّجوم في الليل وتخفينها في أحلامك لتصوغي منها كلمات الصباح، ولكنها كانت تفلت منك، تطير كالفراشات الملوّنه وتضيع في ضوءالنهار

وتترك لكِ ظلالها التي تستعصي على الصّيد، ولا يبقى منها سوى حلاوة تذوب في فمك، وألوانا تسكر نهارك تأبى الظهور على الورق.

ولا شيء يحدث !

تنهضين باكرا لتحاولي النّوم من جديد. الهرب أجدى من هذا الفراغ الشّاسع.

تهربين إلى الشوارع الى الساحات الى الغابات، تجلسين على مقاعد الحدائق، ترتادين المتاحف والغاليريهات والمقاهي ولا ينفد الوقت.

جميلة باريس ولكنّها منفاكِ.

في كنيسة النّوتردام أضأتِ شموعا للسيدة العذراء، وصلّيتِ لله أن يهدي رفاقك ويغفر لهم لأنهم لايدركون ماذا يفعلون.. هل كنت تكذبين؟

لعلك لا تصدّقين خيانة الأصدقاء.

قلتِ يارب أعِدني إلى هناك حيث لا يتلكأ الربيع عن موعده وحيث تأتي الأصباح شفيفة تتراكض مع المريمية والحنّون.

وليس لله ما يمنع من استعادة جواز سفرك ... يقولون لكِ إنشاء الله ...

غير أنهم يرون أن ماله صار لهم، وأن منفاكِ يقع خارج حاجز الصوت، ولا صوت لك ... هكذا!

هم في الأصل لا يرغبون سوى في سماع أصواتهم وأنّ عليك أن تخبّئي أحلامك في جيب معطفك وتملأي فمك ماءً كالضفدع.

لكنّ السّماء بسحبها ومزنها وضبابها تقترب كثيرا فتضطرّين إلى حملها على كتفيك اتقاء سقوطها فوق رأسك ،تفتح لك شرفة تطلين منها على الوطن ، والحلم بأمنية تأتي في موسمها.

الواقع مساحة انتظارتقطعينها في الإصغاء إلى نبض المدينه ، تجوسين في الشّوارع على غير هدى، تسيرين إلى اللامكان، تصادقين الأشجار وضفة النّهر ووجوه النّاس الرّاكضين الى مواعيدهم.

أيتها الجالسة على قارعة الطّريق

الطريق التي لا تمضي

بانتظار الحافلة

تحصين ألوان الزّهور

في شرفات المنازل

وتحلمين بفجر معلّق كقنديل

فوق سطح بعيد

كم مضى من وقت وأنت تنتظرين؟

تنتظرين ارتطام الشُّموس

وانحلال الجهات

علّك تجدين وميضك منتظراً

فوق سطحٍ ما من هذا الكوكب

كم مضى من زمنٍ

وأنت تُختزلين

منذ سرقوا نجمك

وقرنفل أيامك

وتركوا الفصول تقطر من ذوائب شعرك

قطرة قطرة . . . وأنت تنتظرين الحافلة.

أهذه أنت ! لست سوى دوريّ
تاه سربُه بعيدًا عن يقين الحقولْ

تستقلّين الحافلة من محطّتها الأولى، فتحملك عبر المدينة الى محطّتها الأخيرة في نهاية الحيّ اللاتيني ولا ينفد الوقت، تقطع بك المدينة من أقصاها إلى أقصاها وتعيدك ولا ينفد الوقت. لاينفد في المتاحف، لا ينفد في المقاهي، لا ينفد في لقاء الأصدقاء، ولا ينفد حتّى في الكتابة، ويظلّ مساحة انتظار، شرفة تطلّين بها على الوطن.

يصحو الكلام، هذا المجهول الذي يقدّم نفسه باباً تعبرينه إلى خضرة الذاكرة، حضور الوطن مجرّدا من كلّ عيب، تداخل الوجوه والأزمنة، حلاوة الكلام، جِراح الموسيقى، كلمات الشّعر التي تذبح القلب.

بالرغم من الأسئلة التي لا تتوقّف، وتظلّ تلحّ مع كلّ ما ينبض في الهواء، في الطرقات، في الكتب، في الأفلام. تصفعك الحياة مع كلّ حوار أو كتاب جديد تسألك عن الحقوق في الوطن، حقوق الفرد وحقوق الجماعة، تسألك عن حريّة الرّأي.

ومع الأيام، صار الوطن عالما موازيا للواقع تعيشينه في الأحلام والهواتف والصّحف.

فما الذي يمكن أن يصيب امرأة مثلكِ
ما الذي يمكن أن يصيبها

من كان عليها أن تجمع ذاتها من ذرّات الهواء
وتخفيها عن المحققين
وتصغي إلى رنين دمها في فوهات الأسلحة
وتجمع لحم رفاقها بيديها عن جدران المدن
وتقول للموت لا !

ما الذي يمكن ان يصيب امرأة مثلكِ في هذا الإبعاد القسري، وأنت ترقبين إصرار الطّيور التي تواصل بناء أعشاشها في أعناق الحور العاري خلف البيت رغم العاصفة التّي تصرُّ على اقتلاع كل

شيء، تبقى الأعشاش ثابتة في أماكنها،
لعلّها أشدّ ثباتا من قطرات الروح التي نزفتِها قطرة قطرة لتفسحي بها موطئا لقدميك.

ثم تسألين!
كيف تسنّى لمقال في مجلة نسائية حول سرطان الثّدي إثارة شكوكك فتسارعي إلى تحديد موعد مع الأطبّاء لإجراء الفحص !
نعم
كنتِ على يقين من أن جلوسك كل ليلة أمام التلفاز تتحرقين وتشاهدين كيف يتم ليّ اللغة التي سقطت عنها قداستها في قالبها الجديد، وتطالعين وجوها جديدة ليست من فصيلة دمك، جاءت كالوجبات الجاهزة لتنطق باسمك و باسم الوطن الذي يتم قصّه وتشذيبه كأشجار الشوارع، لابد وأن تصل بك إلى الجنون او السّرطان.

أنتِ لست بخير.
فهل ستجرئين على المواجهة؟
سميرة، صديقتك، لم تصدّق إمكانية حدوث ذلك لمن في مثل قوتها وعنفوانها،
وبين التكذيب والتّصديق، مرّ الوقت، سرق السّرطان عمرها ومضى.
وآنيا الصحافية الفرنسية التي ذهبت لعيادة صديقتها في مستشفى السرطان، فاكتشف الطبيب السرطان في صدرها هي. وكان الوقت متأخرا والعلاج بلا جدوى... غير أنها تمكّنت من التّشبّث بالعمر برهة... سرقت منه فرصة لكتابة حكايتها مع السرطان، كشهرزاد التي أطالت عمرها بالقصّ.

نيسان ينشر صبحه الذّهبي على أشجار الشّارع الأنيق، وحديقة كليمنصو تحتفل بالرّبيع، وتغرق بعطورها وألوانها، وتلهيكِ عمّا أنت فيه، تدعوك فتعتذرين لضيق الوقت.
تكرهين هذه المهمّة الثقيلة.
طبيبتك تعتمد هذه العيادة التي لم تزوريها من قبل، والتي تفضّلها على المستشفى الشّهير المجاور لبيتك.

تصلين الى العنوان التآئه بين اليافطات، تقرعين الجرس فينفتح الباب عن نجمة داود بمختلف الأحجام تتزيّن بها جدران العيادة.

تلتفت إليك العيون فتجلسين على أقرب مقعد وتنتظرين.

ويطول انتظارك وأنت تتلهين بالمجلات الصّحية المصفوفة أمامك، تقرئين أن الكركم مهم لصحة الدماغ وأنه يحمي من مرض الزهايمر وأن حبة الجوز بفلقاتها الداخلية تحاكي الدماغ، وأن الغذاء الفقير بالدهون والغني بالخضار يحمي من السّرطان وأمراض الشّرايين.

وتنتظرين.

وأخيرا نودي على اسمك، وانفرج باب جانبي، وسَرت في أوصالك تلك الرّعدة التي تعاودك لدى كل فحص، إذ يتحول جهاز الفحص إلى آلة تعذيب ترقّق الصدر كالرغيف البلدي.

بين براثن الجهاز لا تفكرين سوى بالخلاص من ألم الجهاز

فكيف بك وأنت تتلقين الأمر بضرورة إعادة الفحص ، ثم المزيد من الفحوص التي طلبت طبيبتك إجراءها على الهاتف... تعادين إلى غرفة انتظار كالزّنزانة.

يجف لسانك... وتختنقين بالأسئلة ولا تسألين.

تمتثلين للأوامر، وتجري الفحوص على جسدك وأنت كالمأخوذه.

ينتهي الفحص أخيرا، ويشد الطبيب الكوبي الذي يتحدث الفرنسية بالإسبانية على يدك مهنئا بالسلامة، ويسلّمك التّقرير وصور الأشعة.

أَسَلمْتِ حقاً ؟

تهرعين الى طبيبتك في الشارع المقابل فتؤكد سلامتك، وتندفع كعادتها بالنقاش حول مفاوضات السّلام، فهي عضو قيادي بارز في الحزب الإشتراكي الفرنسي... ولم يترك الوقت وقتا لمزيد من الحوار والعيادة تعجّ بالمنتظِرات .

أنجوت حقاً؟ تشكّين؟

غريب كيف يتحول الشّك إلى مصيدة !

في محطة المترو، هبط الأنيقون بعطورهم وكلابهم واكتظّت العربة بأصناف البشر، وعلت موسيقى المتسوّلين وأدخلتك في صخب المدينة وحيويّتها، وألهتك عن التفتيش عن خيوط جديدة للشّك.

تعشقين الصّخب... الصّخب حياة.

في محطة أناتول فرانس هبطتِ من المترو، وعرجت على بائعة الزهور وانتقيت باقة من زهر المرغريت، ودون وعي منك، استغرقتِ في تمزيق تويجاتها كالمراهقات بحثا عن اليقين.

تعيدين الفحص !؟

لن تفعلي... وستظلّين مقيمة في القلق.

إذاً، تناسي الموضوع، أطرديه من رأسك،

إستبدليه بقراءة رواية، بفيلم. ضعيه خلف ظهرك، أو في جيبك، إحكيه لصديقاتك، ولا تسمعي الأخبار التي تغتال أحلامك وأمانيك وكلّ ما آمنت به.

تدخلين المقهى ،تجلسين بانتظار صديقتك القادمه من طرف المدينة الآخر، تتلهين بمتابعة وجوه الرواد القادمين من أصقاع الأرض على رصيف الشارع الفسيح،

فضاء حرّ لا تحكمه قوالب... يسرقك الإتساع منك، يشتت هواجسك، تبتسمين للظروف العرجاء التي ألقت بك هنا من حيث لا تدرين.

تصل صديقتك مشدودة الأعصاب مما تُهلّل له الصحافة الدولية حول "ملهاة السلام" ولا يسمح النّقاش واستعراض سيول التصريحات المجّانية بمناقشة شكوكك.

* * *

حين نام دويّ المدينة، ثقلت عليك الأخبار. مزّقتك القضايا التي سقطتْ عنها قداستها، وحقوقك الوطنية التي تقدم بلا ثمن على الشاشات... فإذا كان شيء في الأشعة فهو هذا السّم والخذلان والخيبات.

وبعد الآن لاشيء يهم... لاشيء يهم.

أيهذون؟ بعضُ وطن، فتات وطن، قليل من وطن، شيء من وطن.

وكيف لا يهمّ! تشتبكين مع الفراغ، وهواء البيت... تشتمين نفسك وأهلك وأجدادك وحتى غسّان

الأوّل الذي رسم وجودك ومصيرك على هذه الأرض المقدّسة التي يُفقدونها قدسيّتها الآن وأمام التاريخ .

و التّاريخ لا يرحم: صلاح الدين ترك السّاحل للروم في صلح الرّمله.

سينما... المقابلات المتلفزة، والوجوه التي غيّرت وجوهها، والكلمات التي بدّلت معانيها، والمواقف التي تعرّت ككروم الشتاء... أخذتك منك...

ألهتك عن ذاتك.

أربعة أشهر كاملة أجّلت القلق.

غير أن يداً لَمستْك... لعلهّا ملاكك الحارس... أيقظتك من سبات ليلك إلى صحو الحقيقة، حثتك على ضرورة إعادة الفحص.

هل كان حلماً !... لم يكن حلماً.

أيُّ صحو هذا... أيُّ صحو !

فجأة يصرّ العالم على أن يكون أشدّ واقعيّة وقسوة مما عهدتِه حتى في ليالي الموت من عمرك الفلسطينيّ... وكأن الحقيقة كانت بانتظارك أو كنت بانتظارها. تصطنعين رباطة الجأش... تقرئين عيون الطّبيبة وهي تدبّج التقرير، كمحكوم أغلقوا عليه أبواب السجن، الطبيبة هادئة وصريحة.

لاتجدين لغتك المنتقاة ولا صوتك الهادىء في اصطناع الشّجاعة، تُحدِّثكِ بلغة علميّة محايدة تشي بشيء من التّعاطف في أناقة تعبيرها، شأن أصحاب الذوق الرفيع باقتراحاتها حول العلاج وسبل الخلاص.

ولماذا تكترث، غرفة الإنتظار... مر بها كثير من أمثالك، بعد عام أو أقل أو أكثر سوف يذهبون ولا يعودون.

يضيق المساء، وتضيقين به، يستحيل إلى زنزانة تخنقك. الآن تُغلق عليك الأبواب ويصبح لعالمك تقويم آخر... ينفصل الزّمن عن الزّمن وتجدينك وحدك وحولك خواء بلا لون، وكأنك لا ترين ولا تسمعين، وعلى مقربة منك آخرون يتحّدثون عنك.

فهل تخلت عنك الحياة هكذا وبلا مقدّمات! فجيعتك بها لايتّسع لها الكلام، أنت التي عشقتِها بتطرف تتبرّأ منك، تكتشفين وبجرعة واحدة مدى الخديعة.

السّرطان كامن في صدرك! لعلّه كان يغافلك ويسري حين تغمضين جفنيك، لكنك لست ممن

يغفلون عن دقّات قلب الحياة وينامون عن شواردها؟
فكيف لم يلتقطوه في الفحص الأخير! وقبل أربعة أشهر!

هل آمنت حقاً بقوة الروح وقدرتها على حماية الجسد؟
فما الذي كسر يقينك؟
ألم تكوني قويّة بما يكفي لحمايتك من هذه البشاعة؟
فأنت لم تعيشي عمراً يجعلك تقبلين صاغرة بهزيمة الحياة فيك.
فما الّذي رفع إشارة التّوقف، وقطع الطّريق؟
ثمة آلاف الأشياء التي لم تفعليها بعد، وملايين الكلمات التي لم تكتبيها بعد،
وفي الشوق شطآن وعوالم لم تريها بعد.
أتصدقين! جسدك قاتلك ! أتصدّقين!

لم تقفي مرة واحدة لتطرحي على نفسك السؤال الذي يطرحه العقلاء
أين أنا؟
كنتِ مندفعة كموجة مجنونة، كعاصفة، فلماذا تضعينني الآن أمام هذا العسف
أما ُكنتِ مرآتي؟ فلماذا لا أراني الآن! ولماذا تبدين كاللاّشيء أمام سؤال الحياة والموت!
هل أضعتِ يقينك أمام هذا الرّهيب الذي لا يُسمّى؟ ردّي ولا تقفي هكذا فزعة كطفل أضاع أمّه.
لا أفهمك، وبأيّ المعاني أُصدّقُ خوفك؟ أما كان بوسعك إسناد سماءٍ سقطت أقمارها،
أما قرأت أنّ كثيرات نجونَ، تسلّلن من بين براثنه.
أما عبرت بحر الموت عمرا، ونجوتِ... فما بالك الآن تخافين خوف المحكوم بالإعدام! لابأس عليك...
فسواء كنتِ في ثوب الإعدام الأحمر أو ثوب العمليات الأزرق، فلا أمرّ مما أنت فيه .

أيهزمك الزّائر الثّقيل؟ غافلك وتسلّل الى جسدك كاللص كي يسرقك منك، وضع نقطة في العمر تحددّ الماقبل والمابعد.
والإحساس الرّهيب بالوقت الذي يركض بك الى نقطة في الزّمن، ولا تستطيعين إيقافه.

أن يصبح الغد تهديداً!

في النّسيان تنام أوقات أخرى، ويعبر وقت آخر ودم كثير. شيء من هذا حدث من قبل، وجود وعدم، يتقاسمان الزّمن الماضي والحاضر.

كان تقدّم الموت على دويّ دقّات القلب، ثمّ النّجاة بعد سقوط القذيفة في مكان آخر غير رأسك، يمنحك إحساسا بوفرة الحياة.

كانت هواجسك قصيرة الأجل... فما دامت الحياة ممكنة بين القذيفة والقذيفة، فلا بأس من معايشة الموت الّذي يأكل معك من الطّبق ذاته ، ويحدّق فيك بعينيه السّاهيتين وأنتما تلعبان لعبة القطّ والفأر .

كان للموت معنى، كنت تدافعين عن الحياة. . . ولم تكوني وحدك، كنت كالآخرين تقتسمون خوفا واحداً، ، وحلمًا واحداً. وأملا واحدًا بالنّجاة ، لذلك كنت تُقصين الموت عنك تهشيّه كالذّباب ، وها هي الحياة تخونك !

أتخافين ؟... لستِ جبانة ، لكنّ هذا موت عبثيّ

في الليلة الأولى بعد اكتشاف الحقيقة، كان الوضع غريباً، قلتُ لك خليّة من خلاياك جُنّت وانقضّت تنهش ماحولها، نامي لتنام. لكنّكِ سهرتِ تتربّصين بها وتتربّص بك .

نمتِ، صحوت، نمتِ، حلمت بالسّرطان وقد استحال الى حجر رحى يطبق على صدرك ، تختنقين... تصحين مقطوعة الأنفاس، تعودين للنوم، فيعاقبك النوم على إقلاق راحته بكابوس يستحيل فيه السرطان سرطانا بحرياً ينشب أنيابه في صدرك، تستغيثين ولا يسمعك إلاّي ،فهدّئي من روعك .

الصباح فاتر ثقيل الخُطى، يتركك على باب المستشفى ويختفي... تتلكئين... خائفة أنت... الموت مقيم فيك، وعليك وحدك هزيمته بكلّ مااستطعت من بأس.

يغرسون إبرهم الطويلة عميقا في صدرك للحصول على عينات مما أظهرته صور الأشعّه، تسحب الإبرُ روحك وفتاتا من نسيج وجودك. تتصّببين دموعًا ودمًا. تستغيثين بنفسك وبهم وبكل الأنبياء بأنين مكتوم ولا يغيثك أحد.

يشيدون بقوةِ احتمالك وأنت أضعف من نملة.

من قال إن بإمكانك احتمال المزيد.

أما من مخدّر!

حلاوة الرّوح تذهب بروحك فلا تجدينك .
تسمعين لهاث دمك ونبض قلبك الّذي ينخلع ويهوي مفتّتا على بلاط الغرفة... غرفة التّعذيب.
هذا وألمٌ ليس كالألم.

تتثاقل عقارب الساعة الكبيرة ، تزحف، والطبيب يتصبّب عرقاً ، وكأن صدرك جماد أصم وأنت حجر .
أنت أضعف من نملة أمام هذا الهول... أيتها المناضلة الباسلة.
يغرورق الألم في عينيك وحلقك وتصبح الحياة أشد بؤسا وإيلاما من كل ما مررت به من قبل...
استعدي الآن بالرغم من كل شيء، فأنت قوية بما يكفي لخوض التّجربة.
أتركك الآن لتهدئي، فلستُ أملك صبرا ولا حشيشة قلب للرّد على تساؤلاتك
كأنك فقدت تفاؤلك في رائحة المستشفى وفي كلام الطبيب!
تتفحّصين الإشارات والحركات بأصابعك المرتجفة... ستظل أسئلتك معلقة بلا اجابات.

جميل أن تغيم غرفة العمليّات ووجوه الأطباء وأدواتهم... جميل هذا المخدّر، يحملكِ بعيدا.
نامي الآن... سأتركك تحلقين على جناح غيمة بيضاء في هذا الفضاء المغسول، لولا الضّوء الذي يغرز أشعته في عينيك ويقلق نومك... تطلبين إزاحة الشّمس فيذوب الكلام على شفتيك، تسمعين صوت الطّبيب يهدهدك، فتستسلمين للصّوت.
تتداخل الأزمنة... كأنك تكملين حلما لم يكتمل!
الممرضات أوزّات بيضاوات يتهامسن من حولك... والطّبيب مارد أزرق
وأنت على سرير غمامة في فضاءٍ أبيض... ينخفض الهمس، يصبح خطّا واحداً بلا تعاريج، تحاولين الكلام فيذوي على شفتيك، تنامين... تنامين...
تهمس الأوزات بفزع elle est morte. ميّتة أنت إذاً.

يحدق الطّبيب في وجهك بعينين غاضبتين ويقول شيئا ولا تفهمين... تعرفين أنه ليس هو، ليس طبيبك... هو آخرُ لم تشاهديه من قبل.

ميتة أنت إذاً... يلفّ روحك بقماط أبيض، ويهرب بها من بوابة المستشفى، يركض صاعدا طريق الجبل، تركضين خلفه مغلولة القدمين كسلحفاه... يبتعد، يبتعد، لا تستطيعين اللحاق به، تصرخين... تنادينه... يلتفت اليك، فترين فراغا مكان الوجه تحت غطاء الرأس الأزرق، تصرخين فزعاً، تستغيثين، يمر بك السابلة ولا يلتفتون وكأنك لا أحد. تتسمّر قدماك ولا تستطيعين مواصلة الرّكض، تتضائلين، تصغرين... يبتعد الشّبح راكضا الى أعلى قمة الجبل، يقف على حافة جرف مسنّن ثمّ يختفي. تتسمّر قدماك ولا تستطيعين مواصلة الرّكض...

مسحوقة مغلولة القدمين حافية عارية الظّهر في ثوب المستشفى.

ثم ترين جسدك ممددا أمامك في غرفة العمليات، ترقبينه كما من خلف ضباب وكأنه

ليس لك، ثم يأخذك نعاس آخر فتنامين .

تحلمين : مائدة تتوسط الغرفة في البيت القديم (فضاء أحلامك)... وكتاب مفتوح كأنه ألبوم صور وأنت تقفين أمام نافذة تطلّ على أيّامك وتبتسمين لك كما في الصّورة، تتقدّمين نحوك، تقولين هيّا ! تفتحين عينيك المستغرقتين في السّبات كما من خلف ضباب...

موثقة أنت إلى السّرير.

جسدك أربطة وأنابيب تتدلى من خاصرتك من إبطك من صدرك...

يستفيق الألم، تصحوان معاً.

النجاة، خاطرة تعبر لا وعيك، ألا زلتِ تحلمين بالنّجاة !

لعلّ... ليت... ولكن الصّمت من حولك يقول شيئا آخر

تتذكرين هذه الأنابيب من قبل تتدلى من خاصرة آنيا.

زمن جديد... يضعك على حافته، يدفعك، ولا يزوّدك بحبل نجاة.

زمن بلا لون ولا معنى، يتنقّل بك بين سرير المستشفى وسرير البيت ولا يحمل عنك ولو طعنة ألم أو رعشة رعب واحدة على عتبة الموت.

تراقبين نفسك بذهول وأنت تدمعين حين تُدخل الممرضة إبرة الأكسير في شريان صدرك وتصغين الى كلماتها التي تربّت على روحك حنانا وأملا، ثم تتركك لسيل الكيمياء، يسري في دمك! يدمّر خلاياك، يُدمّرك، وماذا كنت تتوقعين من دنيا تهديك مهنة التّصدي لنوازلها ؟

يريحك ما يمنحه العلاج من نسيان، تنسين... تحبّينكِ صبيّة فتيّة،

لكنّ الأيام تسقط من ذوائب شعرك كما ماء المطر على طريق البيت، تركض بك ولا تملكين القدرة على إيقافها، لو تقبضين عليها، لو تستبقيها.

ترينها الآن تفرُّ من يدك كالعصافير، فعقارب الوقت لا تتوقف عن الدّوران، تمرّ على وجهك كما تمرّ الرّياح على سفوح السّوافي، حاملة معها ذرّات من ملاحتك.

لا تحبّين أن يسرقك الزمن هكذا، يسرقك منك... تحبّين أن ينساك ،كما غنّت فيروز

" ينساني الزّمان على سطح الجيران ".

لماذا هذه المعركة غير المتكافئة، يأتي بك ثم يعيدك للّـكينونة، أليثبت أنّه الأقوى!

وأيّ ذنب فعلتِ كي يعبث بك هكذا!!

ستتحمّلين خوفك وآلام جسدك ونوبات الدوار والغثيان واحتمال فشل العلاج، أمّا أن تستيقظي هكذا وبعد الجرعة الأولى للعلاج لتجدي وسادتك مغطاة بشعرك!

تبكين وتضحكين، تضحكين من شكلك الجديد بأسى وأنت تصغين الى صوت جارتك السّاحر وهي تغني la vie en rose و non je ne regretted rien

فأنت أيضاً لا تندمين على شيْ ، وبالرغم من أنّ حياتك لم تكن ورديّة اللون كما تصدح الجارة مع إديث بياف فأنت تحبينها... أنت تحبين الحياة.

ولكن

من أنت ؟

لست سوى ذرّة من كون عظيم .

فما يضيره لو يدعك تواصلين حياتك... أنت لم تطفئي نجمة من نجومه

ولااعترضت كوكبا من كواكبه، ولا سرقت سرّا من أسراره، من أنت ؟

تأتين هكذا وتمضين بلا معنى، بلا وضوح .

أشجار الحور، رفيقتك

التي تحمل لك الشمس على كفّيها كلّ صباح /وتفتح نافذتك للصّحو/ وتعدُّ لك قهوتك

شامخة في وجه العاصفة / والّريح الوحشيّة ذات المخالب/ تنقضّ على جذوعها بفؤوسها اللاّمرئيّة/ كحطّابي الغابات/ فتسقط منها أعشاش اليمام /ومزق الأوراق/

وتلوي هاماتها الجرداء.

لكنّها لا تلبث أن تعود رافعة الرّؤوس / عارية إلاّ من روحها / مطبقة أهدابها على حلم ربيعيّ / تُربّت على خدّك بأصابعها الحانية، وتبتسم /

أشجار الحور رفيقتك عارية إلا من معاطف الثّلج/
كجسدك مجرّدا من عنفوانه في سموم الكيمياء /
فالأكسير أشدّ من أن يسمح بإراحة الرأس على الوسادة / ومع ذلك
فأنت تَعدِّين الأيّام على أصابعك / كما في دروس الحساب الأولى/
منتظرة نهاية الدّرس .
أشجار الحور نحيلة كروحك / روحك التي تنفلت منك / روحك التي تنفلت منك
هائمة في دروب المدن/
تبحث عن خواتمها / عن كحل عيونها / الذي سرقته السّموم /
وتحلم بالبراعم
في أطراف الغصونْ

صارحكِ طبيبك بما سوف يأتي، ونصحك بالحصول على باروكة وقبّعه. حسبتِه موضوعا مؤجّلا وأن شعرك لن يتساقط هكذا دفعة واحده، وأطلعك على مختلف مراحل المرض، ولم يعدك بشيء، حمّلك وحدك مسؤوليّة شفائك... لم يكن غامضا، وكان على حلمك المهدّد إكمال الصّورة.
أنت في سباق مع المرض وعليك وحدك الدّفاع عن حياتك.
وماذا في تساقط شعرك؟.. بالأمس لم يبدُ الأمر لك هكذا... أتسخر الحياة بك؟
بالأمس ابتعت باروكة تناسب قصّة شعرك، وتركت زوجك يجز شعرك بالمقصّ كصوف الخراف ، لكن عندما غافلك الليل وأسقطه من جذوره على الوسادة لم تتمالكي نفسك، صعقتك المفاجأه أبكتك، ووقفتِ أمام الصّباح كشحّاذ يستجدي الرّحمة من حياة لاترحم.
في الحقيقة لم يكن الشّعر سوى عنوان الحرب بين خلايا دمك و حرائق الأكسير
وبعد ليلتين فقط من الوصول بك الى المستشفى حيث تركتك سموم الكيمياء تتجرعين الموت حتى الصّباح.

لم يحفل بك عيدالميلاد، مرّ بالباب ولم يسأل، كانت المدينة تحتفل به ويحتفل بها، وكذلك المستشفى وسيّارة الإسعاف.
هل متِّ في المنام أم خطفكِ الليل ثم أعادك. لم تكوني هنا، وكنت أدافع عن حياتي فيك ، أستعيدها

من قبضة الغثيان والغياب .

لعلّ المدى السّري المعطى لروحك لم تزل فيه بقيّة حياة، فاستبقاك، أو أنّ إيقاع المطر على النّافذه أوصل رسائلك المبللة برائحة الأمل إلى سماء الرّحمة !

صحوتِ من الموت بعد يومين على حافة الحياة.

كانت جرعة السّم التي تلقّاها قلبك مترافقة مع دفقة الأشعة من القسوة حتى أن الفراش لم يتسّع لنزق جسدك ودواره وغثيانه فاتخذتِ الأرض بديلا لسحق أحشائك ومساواتها بالأرض.

كنت تدفنين أنفك في الوسادة حين خطر لك الإستنجاد بطبيب صديق علّه يغيثك بنصيحة أو كلمة مواسية تخفف من روعك، لكنه تطوّع بإطلاعك على سرّ أخفاه عنك ولابد لك من معرفته: بأن الشّفاء في مثل حالتك مسألة حظّ لا أكثر.

وما جدوى العلاج والمستشفيات والجرعات والأشعّات والأجهزة إذاً؟

إنها مسألة حظّ اذن!

تصغر الحياة، تضيق، تصبح الدّنيا خرم إبرة وخيط روحك ينثني يرفض الدّخول، أتستسلمين؟ في الغياب راحة، والجسد يعاند استسلامك، يتشبّث بتلابيب الحياة.

لروحك قصائد يكتبها الهذيان، تنبت من طفولة الأشياء بلا حساب لنهايات معلومة اومجهولة بعضها تفاصيل لقصص ماضية لم تكتمل، والعاصفة تذرو روحك وترجعها، تراقصها على موسيقى صخب المدينة التي تحتفل باستقبال العام الجديد.

يتعافى جسدك الواهن، كأنه يبتكر نفسه من جديد. أفرحك من عمق ذاتك طيش جميل واجه دهشةً تلألأت في عيني زوجك. الحياة ليست عبثاً، إنّها تستحق أن تعاش. جذوة الحياة فيك أضاءت وتمرّدت على الغياب.

العيد لحظة فرح، مساحة لتراقص الروح أملا منشودا علّه يأتي... لبست ثوب الفرح الأرجواني بدهشة طفلة تأتي عملا مجنونا غير مبالية بكلّ المحظورات.

واعتمرتِ الباروكة بفرح يسابق اللحظات المتراكضة المجنونة لاستقبال العام الجديد حتى لا يتركك العيد خلفه ويمضي... نداء الحياة لم يكن مبهما رأيتِه يضيء في عيني زوجك ودعوة المدينة ليضمكما عالم من عيد يصل الأرض بالسّماء ويغني للفرح بكل لغات الدّنيا...